عبد الحميد بن هدوقة في نظر الآخرين

بقلم: مارسيل بوا

ترجمة: عبد العزيز بوباكير

جامعة الجزائر

I
تجربة مثيرة

الترجمة انتقال من لغة إلى أخرى وباب مشرع على عالم مختلف يدخل منه قراء جدد. وهي كذلك لقاء بين الأشخاص. وأنا أعتبرها أكثر من أداة مهمة لكونها اتخذت مظهر صداقة.

بدأت القصة بمطالعتي «ريح الجنوب» آنذاك لم يكن المؤلف في نظري سوى اسما ضمن أسماء أخرى. لكن انكشف أمامي أثناء القراءة انسان متأصل بعمق، انسان ملتزم، انسان واضح ومبتكر.

وهذا التأصل هو تأصل ابن من أبناء الجزائر، جزائر الأمس واليوم، بنظرة متجهة بعزم إلى المستقبل. لقد كبر في رحاب الريف الجزائري الذي يدخلنا إليه. إن شخصية مثل العجوز رحمة تعكس على نحو باهر هذا التأصل حيث لا تنفصل الذكريات عن الآمال.

ومن جهة أخرى فإن الكاتب يتبنى النضال الذي يخاض يوميا ضد كل أشكال الظلم والاستغلال. إنه يسمع ويعبر عن صرخة طالبة الثانوية المضطهدة. ويجعلنا نشاطره تعاطفه مع العمال الذين سلبت منهم أرضهم. وينتفض ضد مختلف أوجه الأبوية، ويتكلم باسم من ليس في وسعهم الكلام.

عرفت بعد ذلك امتيازا آخر: وهو أني تحصلت على روايتي «بان الصبح» و«الجازية والدراويش» فصلا فصلا، حين كانت الصفحات تتساقط أول بأول من الآلة الراقنة للمؤلف. ويسّر علي هذا التلقي تأقلما بطيئا ومفيدا مع العمل الفني. ولو توافرت هياكل نشر أكثر ديناميكية لأمكن للطبعة الفرنسية أن تصدر في آن واحد تقريبا مع النسخة العربية.

ولما قرأت الروايتين الأخيرتين تأكدت الانطباعات التي أحسست بها في «ريح الجنوب»، وازدادت ثراء وتوسعت الآفاق. في «بان الصبح» ندخل المدينة، وذلك في 1976 وهي سنة النقاشات المتقدة للميثاق الوطني. وحملت «الجازية والدراويش» تجديدا أكثر. فالرؤية الأدبية وتقنية الرواية تخلقان، إذا صح القول، أسطورة جديدة عن الجازية: المرأة المثالية والمغوية، المرأة التي لا حامي لها، المرأة التي يتعذر نيلها لحد الآن بالنسبة للطامعين الذين يطلبون ودها. ويسلط المؤلف الأضواء، التي تكون طورا خافتة وطورا آخر باهرة، على غنى التقاليد ويعري تناقضات جزائر تتأرجح بين التقليد والحداثة. لكن ثمة مسلمة دائمة الحضور في

روايات بن هدوقة الأربع: فمن خلال السرد والشخصيات تتأكد إرادة إلغاء كل ضروب الكبت والاضطهاد والاستلاب ورفض المحرمات والممنوعات. وفيما يخص مشكلة المرأة، مثلا، فهي دائمة الحضور في مؤلفات بن هدوقة الروائية. ويبدو أن أحلام مستغانمي أدركت ذلك جيدا حين تقول في كتابها: «الجزائر: المرأة والكتابة»: «إن رواية «ريح الجنوب» تسجل ليس فقط ميلاد الرواية الجزائرية بالعربية، لكنها تسجل كذلك دخول المرأة الجزائرية في الأدب باللغة العربية والأمر هنا لا يتعلق بدخول محتشم من خلال المرأة مناضلة أو تقليدية، لكن ببروز جسد المرأة وقهره اجتماعيا وجنسيا. إن نفيسة هي أول فتاة جزائرية في الأدب المكتوب باللغة العربية، التي يعترف لها بحق امتلاك جسد. وللمرة الأولى كذلك فهذا الجسد لا يهان ولا يدنس وهو ليس موضوع كبت للمؤلف».

وهو واضح ومبتكر حين يتصدى للواقع بكل أبعاده ويضفي عليه بعدا جديدا، عبر سيران التاريخ والحياة اليومية، ومن خلال الأزمات التي تولدها العلاقات العائلية والاجتماعية، واستعادة شعرية الأحاسيس والطبيعة، والتذكير بالأساطير والخرافات التي تسكن خيال الشخصيات. إن تقنية السرد، حيث تختلط الملاحظة بالحلم، والحس بالنكتة التي تبرز طبيعيا على لسان الراعي أو الفلاح تجعل القراءة ممتعة ومثيرة أحيانا.

هكذا تأكد، إلى حد ما، بالنسبة لي معنى كلمة باسكال: «حين يكون الأسلوب طبيعيا فإننا نظل مندهشين ومسلوبي اللب تماما، إذ كنا ننتظر أن نرى مؤلفا فإذا بنا نجد إنسانا». فلقائي بالكاتب إثر مطالعتي لأعماله أناط بي مهمة جديدة. فتبينت أن ترجمة الرواية تستجيب لرغبة المؤلف وإلى انتظار جمهور واسع في الجزائر وخارجها.

وأثناء إنجازي لمهمتي استفدت من وضع ذي امتياز. ففي ثانوية المقراني، التي كنت أدرس بها اللغة الفرنسية، كان زملائي من أساتذة اللغة العربية، وخاصة عبد الله مازوني، يشجعونني ويقدمون لي بين الفينة والأخرى توضيحات مفيدة. كما رحب لي صدر المؤلف بصفة خاصة. وسمحت لي لقاءاتي العديدة به أن أكون شاهدا على وعيه المهني ودقة بحوثه في مجال اللغة.

بعد أن أنهيت ترجمة «ريح الجنوب»، دفعت المخطوط لقراءة ثانية إلى نموذجين من القراء المحنكين: قارئ مزدوج وآخر يجهل اللغة العربية. وهذه القراءة المزدوجة، التي دأبت على اللجوء إليها في كل ترجماتي، تسمح بتقديم التوضيحات النهائية سواء فيما يخص الوفاء للغة الأصلية أو نوعية التعبير في اللغة المنقول إليها.

وبعد أن حظيت ترجمة «ريح الجنوب» بتجاوب ايجابي (صدرت منها إلى حد الآن أربع طبعات في فترات متباعدة) أتممت في أعقاب ذلك، إن جاز القول، ترجمة «نهاية الأمس» وتبادلت الرأي باستمرار مع المؤلف مما سمح لي استبعاد بعض الأمور التي كنت أشك فيها، وتمحيص بعض التعابير وإجلاء هذه الجملة أو تلك.

في السنوات الأخيرة أضيفت إلى ترجمة الروايات ترجمة بعض القصص منها:

- «تمثال بلا رأس» - المنشور في «الثورة الافريقية»

- رمانة الساقية - التي كتبها بن هدوقة لألبوم «الأطفال في القلب» لفائدة الطفولة المهملة.

- اطلقوا النار على الكلمات - التي كتبت في أكتوبر 1988، وتداولتها الأيدي بالعربية والفرنسية على طريقة «النشر الذاتي» (ساميزدات) قبل أن تنشر بالفرنسية في جريدة «آفاق» المسائية يوم 13 نوفمبر 1989، وبالعربية في بداية سنة 1990 في العدد الأول من هذه المجلة «الرواية».

وفي عداد تلك اللحظات الغنية التي قضيتها رفقة المؤلف، ينبغي ذكر الساعات التي كرسناها سويا لأقسام الثانويين والطلبة، الذين كانوا يدرسون رواية ما للمؤلف، ويبدون مع أساتذتهم رغبة في محاورة الكاتب. وفي كل مرة أتيح لي أن أعجب باستعداد بن هدوقة وكذلك فطنة أجوبته على الأسئلة التي كانت تطرح عليه.

ووعيت تدريجيا أهمية الترجمة في جزائر اليوم، حيث أن الكاتب مهما كانت اللغة التي يكتب بها، محروم منذ البدء من قسم من قرائه. وهذه الأهمية سبق لعبد الله مازوني أن أشار إليها في كتابه «الثقافة والتعليم في الجزائر وبلدان المغرب» حين كتب متحدثا عن الازدواجية: «إن المترجمين والناقلين يضمنون بحكم وظيفتهم الاتصالات الفكرية الضرورية بين رجال حكم عليهم بالتفاهم لكونهم، قبل كل شيء، أبناء أرض واحدة، في غياب ثقافة واحدة تجمعهم للأسف».

فالترجمة تسهم إذا في عتق جمهور جزائري أو مغاربي معين عن طريق مساعدته في وعيه بشكل أوسع بتراثه الثقافي. وتحي أيضا تقليدا قديما ونبيلا، تقليد التواصل الثقافي بين ضفتي المتوسط وافريقيا.

وفي حالة بن هدوقة فإن رجال الثقافة من مختلف المشارب والافاق أدركوا البعد الانساني العالمي الذي يمثله ابداعه المتأصل في عمق الأرض المحلية. وتشهد على ذلك ترجمة أعماله إلى لغات عديدة. وهكذا «فريح الجنوب» ترجمت

إلى الاسبانية والهولندية والألمانية والبولونية والتشيكية والسلوفانية والروسية والصينية.

ختاما أستطيع القول أني عشت ومازلت أعيش تجربة مثيرة. وإذا كانت عملية الكتابة، كما يطيب لبن هدوقة أن يذكر بذلك، هي مظهر من مظاهر الحرية، عامل تحرر، فإني أعي هذا المسعى وأشاطره وأردد صداه، وحين أسير رفقة كتاب أمثال عبد الحميد بن هدوقة والطاهر وطار فإني أدرك أني أحيي فضلا مستحقا لصانعي النهضة الأدبية العربية في الجزائر.

II

عبد الحميد بن هدوقة
الكاتب الكلاسيكي الحي

بقلم ل. ستيبانوف

ترجمة: عبد العزيز بوباكير

جامعة الجزائر

ولد عبد الحميد بن هدوقة يوم 09 جانفي 1925 في قرية المنصورة بولاية سطيف في شرق الجزائر، وهي قرية تنتمي إلى المنطقة التاريخية المسماة بالقبائل الصغرى، التي اشتهر سكانها الجبليون المنحدرون من أصول عربية - بربرية منذ القدم بتقاليدهم العريقة في حب الحرية. وأمضى ابن هدوقة طفولته في تلك القرية الجبلية، ولم يقطع روابطه بها. أخذ عن أبيه، وبعد ذلك في المدرسة الابتدائية، مبادئ اللغة العربية الفصحى وأسسها، ثم تابع دراسته في جامع الكتانية بمدينة قسنطينة. وابتداء من سنة 1950 قضى أربع سنوات في التحصيل العلمي بفرع الآداب بجامع الزيتونة بتونس. وكان في الوقت نفسه طالبا في معهد الفن الدرامي. وأصبح مدرسا للأدب العربي بين 1954 - 1955.

شارك ابن هدوقة منذ نعومة أظافره، مشاركة فعالة، في حركة التحرر الوطني، ولم تلبث الشرطة أن لاحقته بسبب ذلك، فسافر في نهاية 1955 إلى فرنسا،

حيث أمضى أكثر من عامين، وجرب مختلف ضروب الحرمان، وغير عمله أكثر من مرة. ثم مرض مرضا أقعده الفراش في عيادة، فنصحه الأطباء بتغيير وظيفته. شرع ابن هدوقة في تجريب مواهبه في الفن الدرامي منذ الخمسينيات، فكتب عدة مسرحيات بالدارجة للإذاعة. وارتحل سنة 1958 إلى تونس، مكرسا جهده كليا للعمل في الصحافة والتأليف. فكان يكتب نصوصا لبرامج اذاعية ومقالات لصحف جبهة التحرير الوطني، التي كانت تدخل الجزائر بطرق سرية. ونشرت قصصه الأولى في الجرائد والمجلات التي كانت تصدر آنذاك. وفي السنة نفسها صدر الكتاب الأول لعبد الحميد بن هدوقة، وهو مجموعة مقالات بعنوان «بين الأمس واليوم». وبعد انتزاع الجزائر استقلالها سنة 1962 عاد ابن هدوقة إلى أرض الوطن، مكرسا حياته لإحياء الثقافة الوطنية. وفي تلك الفترة كتب العديد من المسرحيات للاذاعة والتلفزيون، كما نشر أشعارا وقصصا، وابتداء من السبعينيات برز ابن هدوقة ككاتب روائي ناجح.

إن الإرث الابداعي لبن هدوقة ضخم ومتنوع للغاية. فبالاضافة إلى كتاب المقالات «بين الأمس واليوم»، الذي جئنا على ذكره، كتب بن هدوقة ديوانا شعريا «الأرواح الشاغرة» (1967) وثلاث مجموعات قصصية هي «ظلال جزائرية» (1960) و«الأشعة السبعة» (1962) و«الكاتب وقصص أخرى» (1974)، وأربع روايات هي «ريح الجنوب» (1971) و«نهاية الأمس» (1975) و«بان الصبح» (1980) و«الجازية والدراويش» (1983). وينبغي أن نضيف إلى هذه القائمة مجموعة من القصص والأشعار لم تصدر في كتب مستقلة، لكنها نشرت في جرائد ومجلات جزائرية وتونسية ولبنانية وفي دول عربية أخرى، وكذلك أكثر من مائتي مسرحية كتبها بن هدوقة للاذاعة والتلفزيون بين 1957 و1974.

وباستثناء المسرحيات الاذاعية التي كتبت بالدارجة، فكل مؤلفات بن هدوقة وضعت باللغة العربية الفصحى، بلغة عربية بسيطة وفي متناول القارئ المتعلم إلى حد ما، وهو ما يكتسي دلالة خاصة في الظروف التي تعيشها الجزائر. ذلك أن مؤلفات الكتاب ذوي اللسان الفرنسي كانت حتى بداية السبعينيات طاغية في الأدب الجزائري، وخاصة في مجال النثر. فالكتاب المرموقون، أمثال محمد ديب ومولود فرعون وكاتب ياسين ومالك حداد، وضعوا مؤلفاتهم باللغة الفرنسية، ليس لأنهم يستخفون باللغة العربية، لكن لأنهم كانوا لا يتقنون هذه اللغة إلى درجة الكتابة بها. ففي الجزائر الكولونيالية كان التعليم كله في المدارس والمعاهد، ما عدا بعض المؤسسات التعليمية الاسلامية، يتم باللغة الفرنسية. واعتبرت العربية الفصحى لغة أجنبية. أما في الوقت الحاضر، فقد أعلنت سياسة التعريب من أجل إعادة الاعتبار للغة العربية، وارتفع عدد الذين يحسنون اللغة العربية، ونتيجة لذلك نمت الحاجة إلى الكتب العربية. وازدهر أدب عربي في الجزائر في مختلف الأجناس من الشعر والمسرح والقصة والرواية. ويعتبر بن هدوقة ورفيقه في القلم الكاتب الموهوب الطاهر وطار من رواد هذا الأدب في الجزائر وأكبر ممثليه المعاصرين.

قدم بن هدوقة إسهاما رفيعا في تطوير مختلف الأجناس الأدبية بالعربية تقريبا، إلا أن رواياته هي التي جلبت له الشهرة، وبالدرجة الأولى «ريح الجنوب» التي نشرت في 1971، وتركت أثرا أدبيا عميقا لأن قبل هذا العمل الروائي كانت مؤلفات الكتاب بالفرنسية في مجال الرواية مهيمنة بلا منازع. حقا، لقد كانت هناك محاولات لكتابة الرواية في الجزائر منذ مدة طويلة، لكنها لم تكلل بالنجاح. وهكذا، نشر أحمد رضا حوحو سنة 1947 «غادة أم القرى»، إلا أنه من المستبعد اعتبار هذا العمل الأدبي التعليمي غير المتقن في الكثير من الجوانب

رواية، فهو على أكثر تقدير قصة. ويعتبر النقاد الآن «ريح الجنوب» أول رواية حقيقية جزائرية باللغة العربية.

لكن هذا وحده لا يكفي لتفسير نجاح رواية بن هدوقة. والمسألة هنا تكمن في جدة هذا العمل الفني في ذلك الوقت، وفي استجابته لحاجات القارئ الجزائري إلى أدب يعكس في شكل فني ساطع وفي متناوله التغيرات الجذرية في حياة البلاد منذ انتزاع الاستقلال وعزيمة الشعب على بناء مجتمع جديد خال من الاستغلال. ولم تكن هذه التغيرات هينة.

ففي الفترة الممتدة من 1966 إلى 1969 تم في الجزائر تأميم واسع للرأسمال الأجنبي، وانتقلت إلى ملكية الدولة المناجم وشركات التأمين وكذلك القسم الأكبر من البنوك والصناعة التي كان يراقبها الأجانب. واحتكرت الدولة عمليا التجارة الخارجية. وفي فبراير 1971 أممت صناعة البترول والغاز. وأدت إلى بسط نفوذ الدولة على الشركات النفطية الأجنبية، وفي نوفمبر من السنة نفسها سنت السلطات قانون التسيير الاشتراكي، الذي وسع حقوق العمال والموظفين. واتخذت في نفس الفترة إجراءات جدية للقضاء على البطالة وتحسين وضع فئات الشعب المحرومة.

بعد المدينة، أحدثت تغييرات اجتماعية جذرية في الريف، الذي تقطنه الغالبية الساحقة من سكان الجزائر. ففي سنة 1970 أعدّ ميثاق الثورة الزراعية، التي كانت تهدف إلى تحديد ملكية الأراضي الكبيرة. ومنحت الأرض للفلاحين بدون ملكية، وخلقت شبكة متفرعة من التعاونيات من أجل رفع إنتاجية العمل. وفي نوفمبر 1971 تمت المصادقة على قانون الثورة الزراعية، الذي أعيد بموجبه توزيع الأراضي، وبنيت قرى حديثة سميت «بالقرى الاشتراكية».

إن أحداث هذه التغييرات الاجتماعية والاقتصادية، وبالدرجة الأولى الثورة الزراعية، أدى إلى طرح عملية إعادة تحديد مواقع القوى الطبقية السياسية في البلاد طرحا حادا. فقد قاوم الملاك الكبار وبورجوازية المدن والدوائر اليمينية وحلفاؤهم في أجهزة الدولة والحزب الاجراءات الحكومية، سعيا منهم للحفاظ على ملكيتهم ومزاياهم. وقام الرجعيون بمحاولات مسعورة لنسف الاصلاحات الزراعية الجارية، ولجأوا إلى التخريب الاقتصادي وترويج الدعايات الكاذبة، وأبدوا في بعض الأحيان مقاومة معلنة ومكشوفة لسياسة الرئيس الراحل هواري بومدين.

في مثل هذه الظروف ظهرت رواية «ريح الجنوب»، التي تعكس الصراع الطبقي في الريف الجزائري غداة إجراء الاصلاح الزراعي. وقد ظهرت الرواية في حينها. ووفق المؤلف في رسم صورة حية للغاية ومقنعة لأطراف هذا الصراع. وتجري أحداث الرواية في إحدى القرى في منتصف الستينيات على وجه التقريب. وأبطالها هم شيخ البلدية مالك، الذي شارك مشاركة نشيطة في حرب التحرير الوطنية، ونقيضه مالك الأرض الغني والخائن عابد بلقاضي، الذي يطمح بكل ما أوتي من قوة للحفاظ على هيبته وثروته. لقد تطلب الأمر أن يؤمم مالك أراضي عابد بلقاضي. ومن أجل الافلات من ذلك يحاول بلقاضي أن يصاهره ويزوجه ابنته الطالبة نفيسة، التي قدمت من العاصمة لقضاء عطلتها في القرية. وهذه الفتاة المدلّلة المتعودة على الحياة المدينية تجذبها حياة القرية بتقاليدها العتيقة، التي تحكم على المرأة بالانزواء. ويعجب مالك بنفيسة، وهي تذكره بخطيبته زليخة، ابنة بلقاضي الكبرى، التي استشهدت في زمن حرب التحرير الوطني، غير أنه لا يفشي عواطفه، ولا يؤمن في سلامة نية بلقاضي، وكان أهم شيء بالنسبة لمالك هو خير الشعب وانتصار قضية الثورة، التي كرس لها حياته. وكان يعتقد أن الثورة

لن تنتهي ما دام هناك رجعيون ملطخون بدماء الأبرياء، قاصدا بذلك بلقاضي وأمثاله.

وتنطبع في ذاكرتنا شخصيات أخرى في الرواية، مثل الراعي الشاب رابح البائس في حبه لنفيسة، وصاحب المقهى قويدر، والمعلم الطاهر. وقد نجح المؤلف، بصفة خاصة، في رسم صورة شعبية عميقة للعجوز رحمة الماهرة في الخزف، وهي أيضا ذاكرة حافظة للتقاليد القروية، تحلم بصنع قلة تجسد «جمال العالم كله». وصور المؤلف، تصويرا صادقا من الناحية النفسية، الفلاحين البسطاء الذين لزموا موقفا حذرا من الثورة الزراعية المقبلة، خوفا من أن تحرمهم من أهم ثروة يملكونها، وهي الأرض، وقدمت في الرواية صور ساخرة عميقة لأدعياء العلم، من شيوخ ودراويش، يعيشون متطفلين على جهل الشعب البسيط.

رحب النقاد الجزائريون برواية بن هدوقة، واعتبروا ظهورها «حدثا ثقافيا يستجيب إلى الحاجة إلى أدب واقعي مكافح». لقد بشرت رواية «ريح الجنوب» بالاصلاح الزراعي، مثلما كانت روايتا محمد ديب «الدار الكبيرة» و«الحريق»، نذيرا بثورة التحرير. كما لقيت «ريح الجنوب» صدى واسعا في الخارج. ففي المقالة التي نشرتها المجلة الفرنسية «افريقيا الأدبية والفنية» لاحظ الناقد أن بن هدوقة حين يصور عالم القرية الجزائرية المجهول «ينجح في تجنب الابتذال التافه للتقاليد القديمة والمتبعة في الأدب الثوري الكاذب على حد سواء». وتؤكد المقالة أن الكاتب «لا يقدم حلولا جاهزة، إنما يطرح مسائل... ومسائل حقيقية». وقيم صاحب المقالة بإعجاب كبير لغة الرواية واعتبرها «لغة عربية بسيطة وشاعرية تقترب في الغالب من لغة الحديث اليومي». كما تحدثت المقالة عن شخوص الرواية التي تنقصهم السعة، وعن الخاتمة الميلودرامية للغاية.

صدرت في الجزائر خمس طبعات من رواية «ريح الجنوب». وفي عام 1976 اقتبس المخرج سليم رياض فيلما عنها. وكلاهما، الفيلم والرواية، لقيا نجاحا باهرا. كما صدرت الرواية في الجزائر مترجمة إلى اللغة الفرنسية. وقد ترجم مارسال بوا «ريح الجنوب» والروايات الأخرى لبن هدوقة إلى الفرنسية، بالتعاون مع المؤلف. وترجمت «ريح الجنوب» كذلك إلى اللغة الاسبانية.

بعد «ريح الجنوب» نشر بن هدوقة رواية «نهاية الأمس». وتجري أحداث هذه الرواية في قرية نائية غداة أنتهاء حرب التحرير الوطني (1954-1962). وبطلها هو معلم من المدينة يأتي إلى قرية خربتها الحرب، من أجل مساعدة الفلاحين في بناء حياة جديدة، ويستقر في هذه القرية خلافا لأسلافه الذين نزحوا نحو المدن خوفا من المصاعب. ورغم أن هذه الرواية كتبت بشكل جيد وتطرح، مثل «ريح الجنوب»، مشاكل اجتماعية حادة، إلا أنها لم تلق نفس النجاح الذي عرفته الرواية الأولى لبن هدوقة. ولعل ذلك يعود إلى صدور مؤلفات غير قليلة مخصصة لمشاكل القرية صادفت نشر هذه الرواية، ومع ذلك فإن «نهاية الأمس» صدرت في طبعتين وترجمت إلى الفرنسية والهولاندية.

بعد صدور رواية «نهاية الأمس» اشتهر بن هدوقة ككاتب «قروي»، غير أن روايته «بان الصبح» المنشورة سنة 1980 أدهشت، حسب أحد النقاد الجزائريين، القراء بتناولها لألف مشكلة ومشكلة لعاصمة البلاد». تجري أحداث هذه القرية في العاصمة في ربيع 1976 أثناء النقاشات الساخنة حول مشروع الميثاق الوطني، الوثيقة الهامة للثورة الجزائرية، التي حددت طريق التطور اللارأسمالي للبلاد، وأرست أساس دستور الجمهورية الجزائرية.

ويتمحور هذا العمل الفني حول أسرة علاوة الكبيرة، التي يحمل أفرادها قناعات سياسية مختلفة، من محافظة متطرفة إلى ديموقراطية ثورية. وفي هذا الصدد، كتبت الصحافة الجزائرية أن هذا العمل الفني يعكس من خلال البنية الجزئية لأسرة واحدة البنية الكلية للمجتمع الجزائري.

رب هذه الأسرة الشيخ علاوة موظف سام في إحدى الوزارات، متعصب ديني وظلامي، يرفض الميثاق الوطني، لأنه لا يتماشى مع تعاليم القرآن والحديث، التي يعتبرها صالحة لكل زمان ومكان. وهو يسمي الاجتماعات المخصصة لمناقشة الميثاق «اجتماع أعداء الله». إن الشيخ علاوة مغرور بنفسه للغاية، وهو يطمح دوما إلى أن يبدو عكس ما هو عليه في الواقع. وهو «بورجوازي صغير وسط النبلاء» على الطريقة الجزائرية. ويدعوه أولاده بسخرية، «الجنرال». أما زوجته كلثوم، فهي مثله، امرأة محدودة الأفق للغاية.

ويعيش مع الشيخ علاوة أولاده الراشدون، عمر وهو أكبرهم، متزوج، ومدير مؤسسة كبرى تابعة للدولة، حديث النعمة ومستهتر، جمع أموالا طائلة عن طريق المضاربة، ويدوس بوقاحة حقوق العمال. وهو محبوب الشيخ علاوة ويشاطره آراءه. والابن الوسط مراد، وهو طبيب جرّاح درس في فرنسا، يقف بآرائه موقفا وسطا بين أبيه وأخيه الأكبر عمر من جهة، وبين بقية أفراد الأسرة، من جهة أخرى.

أما الابن الأصغر رضا، فهو طالب متحمس لأفكار الثورة الاجتماعية. وأفكاره متعارضة تماما مع أفكار أبيه. وتشاطره قناعاته أخته دليلة الطالبة في الحقوق. إن دليلة هي ألمع شخصية في الرواية، فهي ذات طبع بارز وناضج. إنها فتاة «محشوة بأفكار ناسفة» تمارس رياضة الكاراتي، وتمتاز عن بقية أبطال الرواية

بعدم إمتثاليتها المحاربة. وتعيش في نفس البيت ابنة أخيه نعيمة، التي استشهد أبوها أثناء حرب التحرير. وقد قدمت إلى العاصمة للدراسة في الجامعة، وهي فتاة لطيفة وساذجة، نوعا ما، يبدو لها كل شيء في العاصمة جديدا ومدهشا. لكن عيونها انفتحت على أشياء كثيرة بفضل صداقتها برضا، ومشاركتها في اجتماعات مناقشة الميثاق الوطني. ومن بين الشخصيات الأخرى في الرواية نذكر صديقة دليلة، ابنة العامل نصيرة، التي تكني بسوناكوم (وهي شركة وطنية لانتاج الجرارات). ونصيرة هي نموذج جديد للفتاة الجزائرية المتحررة.

وإلى جانب الأبطال الرئيسيين نجد في الرواية شخصيات ثانوية كثيرة تمثل مختلف شرائح المجتمع الجزائري، ابتداء من أرسطوقراطية العاصمة وإنتهاء بالعمال البسطاء.

لقد كتبت هذه الرواية بأسلوب وصفي تقليدي. وتجري أحداثها حسب التسلسل الكرونولوجي، وتنمو الشحنة الدرامية فيها تدريجيا، ويتابع القارئ باهتمام كبير كيف تصب التناقضات بين أفراد العائلة، والتي كانت مخفية إلى حين، في تمرد معلن للأبناء الصغار على الأب المستبد الغبي الذي يدعمه ابنه الأكبر عمر.

وحين يصور المؤلف حياة أسرة علاوة، يلج بالقارئ إلى صميم حياة المجتمع الجزائري المعاصر، الذي يمر بمرحلة تطور إنتقالية و«مضطربة» حسب آراء الجزائريين أنفسهم، ويبرز الكفاح الاجتماعي الحاد، الذي قسم هذا المجتمع إلى شقين متعارضين، أنصار القديم المتمسكين بالتعاليم البالية وأتباع الجديد المكافحين من أجل جزائر علمانية ديموقراطية حقة.

الرواية لا تخلو من نقائص. فهي تعاني، في بعض أجزائها، من إفراط في الوصف، ونصادف فيها بعض الإطالة، كما غلبت على بعض المشاهد نزعة طبيعية مطنبة. ومع ذلك، فإن «بان الصبح» تترك انطباعا طيبا. وقد نجح ابن هدوقة في خلق عمل أدبي وطني عميق في واقعيته، يعكس الحياة الحديثة لعاصمة الجزائر.

ولقيت الرواية رواجا كبيرا في أوساط القراء. كما لاحظ النقاد فيها بحث المؤلف عن أسلوب جديد، رغم أنه على العموم ظل وفيا للطريقة التقليدية في الكتابة.

غير أن بحوث الكاتب لم تتوقف عند هذا الحد، ففي 1983 نشر رواية «الجازية والدراويش» وهي عمل فني غير عادي، يجمع بين سمات الرواية السياسية المعاصرة والأسطورة الشعبية القديمة، بين السرد الواقعي والقصيدة النثرية الرمزية.

وتختلف هذه الرواية الجديدة تماما عن كل ما وضعه عبد الحميد بن هدوقة من قبل، سواء من حيث الشكل، أو من حيث المضمون بدرجة أكبر.

وتجري أحداث الرواية في قرية نائية، «ضائعة في الجبال والأزمنة». والبطلة الرئيسية للرواية هي الفتاة الخارقة للعادة الجازية بنت المجاهد بطل حرب التحرير الذي «قتل من ألف بندقية ودفن في مناقير الطيور». ويبدو أن اسم الجازية مستوحى من الأساطير الملحمية عن جازية قبيلة بني هلال، وهي حسناء فاتنة دفن شعرها الرائع، كما تقول الخرافة، في أماكن خفية بالجبال. وترتبط طموحات وآمال كل أبطال الرواية تقريبا، بطريقة أو بأخرى، بالجازية الحسناء، فكلهم يخطبون ودها وعطفها. ومن بين من كان يسعى «للفوز» بالجازية شاب متعلم ابن فلاح محلي اسمه الطيب، والعيد العائد من الغربة إلى قريته الأصلية،

وشيخ القرية ذو الماضي الغامض الذي كان يحلم بتزويج نجله الذي يدرس في أمريكا بالجازية، والطالب الأحمر الفاتن الشجاع «الحالم» الذي قدم إلى القرية متطوعا لمساعدة الفلاحين، ورعاة القرية البسطاء. لكن كلهم يخفقون. فالطالب الأحمر يضيع في الجبال بطريقة غامضة ومحيرة، ويقع شيخ القرية في هاوية، ويكاد العيد يهلك، ويدخل الطيب السجن بتهمة ملفقة. وبعد هذه الهزات تعود الحياة في القرية إلى مجراها الطبيعي، وتجري كما جرت منذ قرون تحيط بها هالة من قداسة التقاليد والعادات القديمة، لكننا نشعر فيها بوضوح بحتمية تحولات قادمة.

ويعتبر النقاد أن الجازية ترمز في الرواية إلى الوطن، إلى الجزائر. ويطرحون السؤال على أنفسهم: ألا يمثل هذا العمل الفني باستعارته ومغزاه فكرة عن كون الجزائريين يحبون بلادهم بطرق مختلفة بصرف النظر عن أهداف كل واحد منهم؟ وهناك فكرة هامة في الرواية وهي أنه لا ينبغي استئصال الشعب عن جذوره وعن قيمه المتوارثة عبر الأجيال، كما لا يجب أن نفرض عليه خيارا ما بطريقة اصطناعية، ومن لا يأخذ هذا بعين الاعتبار يفشل مهما كان نبل الأهداف التي يتوخاها.

إن «الجازية والدراويش» عمل فني شعبي حقيقي بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى. وهو يتضمن مشاهد ساطعة ورائعة تنقل روح القرية الجزائرية نفسها بتقاليدها وطقوسها، ما أروع الزردة ورقصات الدراويش ولحسهم المناجل المتوهجة!. وتحتوي الرواية أيضا، الكثير من الأمثال السائرة والحكم المأثورة والنكت المعبرة الهادفة التي يعقبها أحيانا هجاء قادح. وتبرز الطبيعة الجبلية الموحشة، كخلفية للأحداث العاصفة، وكأنها شخصية قائمة بذاتها في العمل الفني.

مع مترجمه إلى اللغة الصينية 1987